فن الرسائل في العصرين

١) ازدهر فن الرسائل في العصرين: الأيّوبيّ والمملوكيّ ازدهارًا ملحوظًا، بسبب عوامل: سياسيّة، واجتماعيّة، وعلميّة، وضّحها.

من العوامل السياسيّة:

١. كثرة دواوين الدّولة التي اقتضت الحاجة إلى كتّاب الرسائل لتسيير أمورها.

٢. حاجة الحياة السياسيّة الرسميّة التي عاشها السلاطين والأمراء والجند من سلم وحرب إلى استخدام الرسائل لإصدار أوامر التعيين أو العزل أو توطيد العلاقات مع البلدان الأخرى وتحسين السياسة الخارجيّة ... الخ.

من العوامل الاجتماعية:

١. علوّ منزلة كُتّاب الرسائل عند السلاطين والملوك، حيث قاربت منزلتهم منزلة الوزراء وكبار القضاة.

٢. اتخاذ الرسائل وسيلة تواصل اجتماعيّ فكانت تستخدم في التهنئة والمدح والتعزية والمواساة والشكر وغير ذلك.

من العوامل العلميّة:

١. ديوان الإنشاء وما وُضع من شروط على مَن يريد أنْ يتخذ الكتابة صنعة له، مع كثرة المكاتبات التي كانت تخرج منه أو تعود إليه مبايعات وعهود، وغير ذالك.

٢. رغبة الكُتّاب في إظهار ثقافتهم وبراعتهم في الكتابة في فنون النثر المختلفة ومنها الرّسائل.

٢) وضّح المقصود بديوان الإنشاء.

هو أحد أهمّ مكونات الجهاز الإداري في الدولة، يُعنى بتنظيم العلاقات الخارجيّة للدولة، وكانت تحرّر فيه الكتب التي يرسلها السلطان إلى الملوك والأمراء.

٣) اذكر ثلاثة من أشهر كتّاب الرسائل في العصرين الأيّوبيّ المملوكيّ.

القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني صاحب كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر في ذكر شعراء العصر"، ومحيي الدين بن عبد الظاهر، وعلاء الدين بن غانم.

١- القاضي الفاضل (ت ٥٩٦ هـ):

١) عرّف بالقاضي الفاضل.

-هو أبو علي عبد الرحيم بن علي البيساني.

-أطلقت عليه ألقاب عدة منها: "محيي الدين" و"مجير الدين" و"القاضي الفاضل."

-درس العلوم الشرعيّة وديوان الحماسة، وتعلّم فن الكتابة، وعمل في ديوان الإنشاء زمن صلاح الدّين الأيّوبيّ.

٢) علّل. سار كتّاب الرسائل على طريقة القاضي الفاضل.

بوصفه أحد أهم أعمدة كُتَاب هذا الفنّ؛ فكانت رسائله وطريقته في الكتابة نهج الهداية لكُتّاب العصرين:

الأيّوبيّ والمملوكيّ، ومحفزة لهم على الإبداع.

وفي ما يأتي نموذج لرسائله الديوانيّة التي كتبها في فتح بيت المقدس على لسان صلاح الدّين الأيّوبيّ

موجّهة إلى الخليفة العبّاسيّ النّاصر لدين الله:

"ولمّا لم يبقَ إلا القدسُ، وقد اجتمع إليها كلّ شريدٍ منهم وطريد، واعتصم بمنعتها كلّ قريبٍ منهم وبعيد؛ ظنّوا

أنّها من اللهِ مانعتُهم، ... فلمّا نازلها الخادم رأى بلدًا كبلاد، وجمعًا كيوم التناد، وعزائمَ قد تألّبت على الموت

فنزلت بعَرْصَتِهِ، ... فزاول البلد من جانبٍ فإذا أوديةٌ عميقةٌ، ولُجَجٌ وَعِرَةٌ غريقةٌ، وسورٌ قد انعطف عَطْفَ السَّوارِ

وأبْرِجَةٌ قد نزلت مكانَ الواسِطَةِ من عِقْدِ الدَّارِ، فَعَدلَ إلى جهةٍ أخرى كان للمطامعِ عليها مُعَرَّجٌ، وللخيلِ فيها

متولَّجٌ، فنزل عليها، وأحاط بها، وقَرُبَ منها، وضُرِبَت خيمتُه بحيث ينالُه السَّلاحُ بأطرافِه، ويزاحمُه السّورُ

بأكنافه، وقابلها، ثمَّ قاتلها، ونزلها وبرز إليها ثمَّ بارزها، وحاجزها ثمّ ناجزها، فضمَّها ضمَّةً ارتقب بعدها الفتحَ،

وصدعَ أهلَها فإذا هم لا يصبرون على عبوديَّةِ الجِدِّ عن عِنْقِ الصَّفحِ، فراسلُوه ببذلٍ قطيعةٍ إلى مدَّةٍ، وقصدوا

نظِرَةً من شِدَّةٍ، وانتظارًا لنَجْدَةٍ، فعرفهم في لحنِ القولِ، وأجابهم بلسانِ الطَولِ، وقدَّمَ المَنْجنيقاتِ التي تتولّى

عقوبات الحصونِ عِصِيُّهَا وحِبالُها، وأوترَ لهم قِسِيَّها التي تضرِبُ فلا تفارقها سهامُها، ولا يفارقُ سهامَهَا نصالُهَا،

فصافَحَتِ السُّور فإذا سهمُها في ثنايا شرفاتها سواكٌ، وقدَّم النّصرُ نَسْرًا من المَنْجَنِيقِ يُخْلِدُ إخلادَه إلى الأرضِ،

ويعلو عُلُوَّه إلى السَّماك، فشَجَّ مَرادِعَ أَبْرُجِها، وأسمعَ صوتَ عجيجها، ورفع ستارَ عَجاجِها، فأخلى السُّورَ من

السَّيّارةِ، والحربَ من النَّظَّارة، فأَمكن النَّقَابُ أن يسفرَ للحربِ النِّقابَ، وأن يُعيدَ الحجرَ إلى سيرته من التُرابِ."

٢ - محيي الدين ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ هـ):

عرّف بمحيي الدين ابن عبد الظاهر.

-هو القاضي محيي الدين أبو الفضل، ولد في بيت علم ودين.

-درس التاريخ والسير، والأدب، وبرع في الكتابة النثرية.

-ومن مؤلفاته:" الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"، و" تشريف الأيّام والعصور في سيرة الملك المنصور."

-تولى ديوان الإنشاء في عهد الظاهر بيبرس وقلاوون وابنه الأشرف خليل.

-ومن رسائله رسالته التي كتبها في فتح المظفر قطز للشقيف سنة ٦٦٦هـ يصف فيها قوّة جيش العدو بالبسالة لتأكيد قيمة النّصر الذي أحرزه المسلمون، فيقول:

"وصاروا مع عدم ذكر الله بأفواههم وقلوبهم، يقاتلون قيامًا وقعودًا وعلى جُنوبِهم، فكمْ من شجاعٍ أَلصقَ ظهرَه إلى ظهرِ صاحِبِهِ وحامى، وناضَلَ ورامى، وكم فيهم من شهمٍ ما سلَّم قوسه حتَّى لم يبقَ في كِنانته سهمٌ، وذي

سنٍّ طارحَ به فما طرحه حتَّى تثلَّم، وذي سيف حادثه بالصّقال فما جلى محادثةً حتَّى تكلّم، وأبانوا عن نفوس في الحربِ أبيّةٍ، وقلوبٍ كافرةٍ، ونخوةٍ عربيّةٍ."

الخصائص الفنية للرسائل:

ظهرت في النّصّين السابقين الخصائص الفنية الآتية للرسائل:

١-تتأثر بالقرآن الكريم، كما ورد في رسالة القاضي الفاضل: " فعرفهم في لحنِ القولِ"، وفي رسالة ابن عبد

الظاهر: "يقاتلون قيامًا وقعودًا وعلى جُنوبِهم."

٢-تؤرّخ الرسالة لأحداث العصر، فَتعدُّ سجلًا تاريخيًا، كما في رسالة القاضي الفاضل في فتح بيت المقدس.

٣-تكثر في الرسالتين المحسنات البديعيّة، كالجناس (فأمكن النَّقاب أن يسفر للحرب النّقاب)، والطباق

)واعتصم بمنعتها كلّ قريبٍ منهم وبعيد، يقاتلون قيامًا وقعودًا.(

٤-تمتاز رسالة القاضي الفاضل بغرابة بعض الألفاظ مثل (السِّماك، مرادع، متولَّج، وغيرها)، وأما ابن عبد

الظّاهر فقد مال إلى استخدام الألفاظ السهلة في رسالته (فِكمْ من شجاعٍ ألصقَ ظهرَه إلى ظهرِ صاحِبِهِ وحامى، وناضَلَ ورامى.

✓ أسئلة الكتاب:

١ .وضّح العوامل العلميّة التي أسهمت في ازدهار فن الرسائل في العصرين: الأيّوبيّ، والمملوكيّ.

- لأنّ كتّاب الرسائل في عصره ساروا على طريقته في الكتابة؛ فكانت رسائله وطريقته في الكتابة نهج الهداية لكتّاب العصرين: الأيوبيّ والمملوكيّ، ومحفَزة لهم على الإبداع.

٣ .وازن بين الرسالتين الآتيتين من حيث الخصائص الفنية للرسالة في العصرين: الأيّوبيّ والمملوكيّ: وصَفَ علاء الدّين بن غانم في رسالة له إحدى القلاع:

"ذاتُ أوديةٍ ومحاجر لا تراها العيون لبعد مرماها إلا شزرًا، ولا ينظرُ ساكنها العدد الكثير إلا نزرًا، ولا يظنُّ ناظرها إلا أنّها طالعةٌ بين النُّجوم بما لها من الأبراج، ولها من الفرات خندقٌ يحفُّها كالبحر، إلا أنّ (هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)."

- وردَّ الناصر قلاوون على محمود غازان الذي طلب منه الصلح برسالة منها:

"من سلَّ سيف البغي قتل به، (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ)، فيرسَلُ إلينا من خواصّ دولتك رجل يكون عندكم ممّن إذا قطع بأمر وقفتم عنده."

JO|ACADEMY